

مقدمة

فى عام ١٩٠٠ ، وعند أسوار بلدة « كاسورى » الواقعة عند ملتقى نهر شارى « بلوجون » فى قلب أفريقيا الوسطى وهى المدينة التى عرفت فيما بعد باسم « فورت لامى » استطاع الاستعمار الفرنسى الذى انحدر إليها عن طريق مستعمرات الجزائر ونيجيريا والكونغو ، أن يصرع بطلا سودانيا ، وأن يستبيح لنفسه التمثيل بجثته والطواف برأسه فوق إحدى الحراب فى الأسواق بعد أن كان مجرد ذكر اسمه فى تلك البقاع كفيلا بأن يوقع الرعب فى قلب كل خائن أو غاز .

وهذا الكتاب يروى قصة ذلك البطل . راجح الزبير . . وقصة الاستعمار الفرنسى الذى ظل راجح قرابة عشر سنوات يكافحه باسم أهالى تلك البلاد كفاحاً مجيداً لم ييخل فيه بروحه أو أرواح رجاله وأفراد أسرته من بعده . . وكان تيار الغزو قد بدأ يتنبه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى تلك الأراضى البكر فى مجاهل أفريقيا باعتبارها سوقاً جديدة للاستغلال ومصدراً لا ينفد للمواد الخام اللازمة لمعجلة الصناعة وقد بدأت تدور هندئذ فى أوروبا فى سرعة عاصفة . فكان طبيعياً عندئذ أن تلد

الحاجة في تلك البلاد أبطالا يذودون عنها ذلك التيار الزاحف ،
وكان راجح الزير من بين هؤلاء .. كان ذلك القائد الذي
صافح النصر في أكثر من مائة معركة دارت خلال مساحة امتدت
آلافاً من الأميال من بحر الفزال شرقاً حتى شواطئ بحيرة
تشاد غرباً .

ولست أدعى أن أحداً من هذا الجيل سواء في شمال الوادي
أو جنوبه قد سمع شيئاً عن راجح أو ألم بقصة بطولته على شدة
حاجة تاريخنا الحديث إلى ذلك . وإلى التفتيش عن سير أبطالنا
ونشرها على الناس والعالم أجمع ليعلم الكل أن صفحة أفريقيا ،
في كفاحها ضد الاستعمار ، تشرق بسير رجال لا يقلون بطولة
أو خلوداً عن أبطال الغرب الذين لم تكف المطابع أو مؤرخيهم
عن تزويدنا بتاريخهم وأخبارهم في كل مناسبة حتى لقد زحموا علينا
حياتنا ، وحتى لقد كدنا ننسى أن لنا تاريخاً .. وأن لنا أبطالا .

ونحن لا ننكر أن البطولة الانسانية العميقة لا تعرف وطناً ..
وأن أبطال الحرية في فرنسا مثلاً هم أبطالنا أيضاً في مصر عندما
يضطروننا كفاحنا هنا من أجل الحرية إلى أن نستلهم مثلاً عايات خالدة .
ولكننا ننكر أن ننسى قوميتنا في زحمة الدعوة إلى العالمية حتى
ليصبح النشأ في بلادنا أكثر علماً بفولتير ، وجان دارك ، وجان
جاك روسو ، وإبراهيم لنكولن ، وغاندى ، منهم بعمر مكرم

وأحمد عرابي ، وعبد الله نديم ، والوزير رحمت ، وراج الزبير ،
ومصطفى كامل ، ومحمد فريد . .
من المسئول عن ذلك . . ؟

المسئول الأول هو الاستعمار من غير شك . . الاستعمار
الذي لم يستبح أرضنا وقوتنا وأرواحنا فحسب ، وإنما استباح
أيضاً ثقافتنا وفكرنا وعقولنا فخرم علينا بذلك أن نقرأ أو نكتب
عن سير أبطالنا ممن رفعوا أعلام الجهاد ضده وبذلوا في حربه
من دمائهم وأرواحهم ما يتضائل بعده كل بذل أو فداء .

لقد فعل الاستعمار هذا في كل مكان حل به . . فعله لكي
يحافظ على كيانه ووجوده وإلا فهل كان الاستعمار الانجليزي
يقوى على أن يظل سبعين عاماً جاثماً على صدر الوادي شماله
وجنوبه لو كان قد أتيج لأبنائه مثلاً أن يشبوا على معرفة تامة
صادقة بكفاح عرابي ضده في الشمال وكفاح المهدي والوزير
في الجنوب فيعلموا بذلك أن ضحايا معارك الاسكندرية والتل
الكبير وأم درمان ما زالت تصيح في طلب الثأر . ؟

وهل كان هذا الاستعمار نفسه يقوى على الادعاء بأن جنوب
السودان لما يزل على حال من البداوة لا تسمح له بأن يشارك
في تقرير مصيره لو كان قد أتيج لأهله يوماً أن يقرأوا عن كفاح
راج كيابن من أبناء هذا الجنوب أقام امبراطورية ، وحكم شعوباً ،

وقاوم جيوشاً ، ونشر الدين والعلم والحضارة في قلب أفريقيا المظلم ..
كل هذا حدث في أواخر القرن التاسع عشر أى منذ أكثر
من خمسين عاماً . ١

وهل كانت فرنسا تقوى على خداعنا وخداع الشعوب
المستضعفة بأنها أم الحريات لو كان أبناؤنا بدلاً من أن يلقنوا
في مدارسنا الشيء الكثير عن بطولات نابليون وفتوحاته ،
يلقنون تفاصيل ما فعله نابليون هذا بخيله في صحن الأزهر أو
ما أوقعه من مذابح بعلماء القاهرة وأبنائها إبان ثورتهم عليه ،
أو ما ارتكبه خلفاؤه بعد ذلك من بربرية ووحشية في وسط
أفريقيا عندما اجتزوا رقبة راج وعلقوها فوق حراهم ثم أتاحوا
لفنانهم أن يرسموا صورتها وأن ينشروها في كتبهم وهى تنزف
دماء وقد تدلت عروقها وأغمضت عينها وكانما لتتاح لهم فرصة
معاودة النظر إلى الصورة بين الحين والآخر فتلتذ بذلك نفوسهم
وتطرب أرواحهم المتعطشة إلى السفك والتدمير وإراقة الدماء .

ولكننا اليوم في عصر بعث جديد ..
فان مؤامرة الاستعمار ضد تاريخنا وثقافتنا قد أزيح عنها العطاء
ورفع الحظر عن اسماء لم تكن تذكر من قبل إلا همسا وفي سطور

قليلة متواضعة كاسم عمر مكرم الذى لم يكن يعرف عنه سوى القليل فاصبح اليوم علماً يدوى فوق المنابر وفي جنبات الميادين ، وبدأت البلاد تشعر بحاجتها إلى التعرف على أبطالها وكتابة تاريخهم من جديد ففاز عرابي ببعض ما يستحقه من تقدير ، وبدأت توضع عنه والألسنة تكثر من ذكره ، كما بدأ تاريخ المهدي الكبير في السودان يتضح رويداً رويداً فإذا بنا نطالع فيه حقيقة كبيرة رائعة كان الاستعمار قد حرص دائماً على إخفائها : وهي أنه لم يكن عدواً لمصر وإنما عدواً للانجليز وحدهم . كذا لم تكذب البلاد تحتفل من جديد بذكرى مصطفى كامل حتى نشرت صحائف كانت قد طويت عمداً بالأمس فعرف أكثرنا ما لم يكن يعرف عن ذلك الزعيم الشاب الذي هز عرش اللورد كرومر في مصر .. واليوم أيضاً يدخل اسم راج مع غيره في دائرة الضوء الذي يلقيه على تاريخنا شمس البعث الجديد فإذا بنا نستطيع أن نتحدث عنه في صراحة وحرية ، وإذابه هو اسم يشرف الجنوب ، وذكرى تثير الزهو في نفوس رجال الحرب ممن خاضوا المعارك وعرفوا أسرار الحرب والنصر ، وتبعث الفخر في قلوب الأحرار وهم يقرأون حياته كدرس حبيب .

وحيث تكون البطولة تكون الخيانة أيضاً . . وحيث يوجد

الأحرار الذين يبيعون دماءهم في سبيل بلادهم يوجد الفريق الآخر الذى يبيع بلاده من أجل أن توهب له حياة كالذل أو أشد ظلاما . . ولولا هذا التناقض الذى يكون بعض طبيعة الحياة وأساسها لما استطعنا أن نضع لأعمال البشر مدلولات محددة كالبطولة والحرية والخير والجمال . .

ومن هذا التناقض تصبح سير الأبطال والأحرار مجالا لتفاعل حتى مستمر يستثير مع الإعجاب الضيق والسخط والثورة . . فمع النور فى تلك السير نحس بالظلام ونضيق به . . ومع البطولة فيها نتعرف على حدود الخيانة فنسخط عليها ومع الحرية أيضاً نلحس قوى البطش والاستبداد فنثور عليها . . أجل : نضيق بكل ظلام ونسخط على كل خيانة ، ونثور على كل بطش واستبداد .

وهكذا كانت حياة رابح . . ففيها من هذا التفاعل المستمر ما لا يكاد يقف بنا عند زمن معين أو تاريخ بعينه أو حادثة بذاتها . . فلسوف تذكرنا خيوط الخيانة التى اصطدم بها رابح بخيانة توفيق خديوى مصر عندما استعدى قوات الانجليز على شعبه المسلم ، كما سنلحس فى بطش الاستعمار الفرنسى واستبداده صورة أخرى لما يدور اليوم من أحداث وفواجع فى تونس ومراكش ، ومن خلال الظلام والموت الذى أشاعته القوات الفرنسية فى هجومها على تلك الربوع الوادعة وهى تشرذ النساء والأطفال وتحرق

دورهم وأقواتهم سوف نلج مأساة الأطفال والنساء من أهل فلسطين وقد شردهم الاستعمار ، وحرّمهم القوت والمأوى ..
ولا أحب أن يفهم عني أحد أنني أقصد بقولي هذا ما يقول به البعض الآخر من أن التاريخ يعيد نفسه .. فما من شيء يرجع إلى الوراء والحياة لا تكرر نفسها ولا يمكن أن يكون هذا هو الدرس الذي نفيده من قراءة التاريخ .. وإنما أردت أن أقول إن الحقيقة واحدة في كل مكان وأن الاستعمار الذي كلفه راجح منذ خمسين عاماً هو نفس الاستعمار الذي يقبض على عنق تونس ومراكش اليوم وهو نفسه الذي يطبق على فلسطين بأنيابه ..
إذن فنحن نثار لراجح عند ما نشور على كل استعمار ، ونثار لكل شهيد عند ما نحطم كل ظلم ، وليست سير الأبطال سوى دعوة للثأر ، وليس تاريخ المكافحين سوى حصن على الكفاح ..

• • •

أما بعد .. فقد قيل لي وأنا أعد صفحات هذا الكتاب أنه خليك بأن يحمل إلى أبناء جنوب السودان شيئاً من أخبار قائدهم راجح ربما يكون النسيان قد عدا عليها ، وأنهم سوف يتلقفونه كما يتلقف الابن رسالة من أبيه الذي غاب عنه طويلاً ..
وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد بعيد .. ولكنني مع ذلك لا أعد هذا الكتاب لأبناء الجنوب وحدهم بقدر ما أسوقه أيضاً

لرجال التاريخ في مصر ممن شغلهم الأحداث عن كتابة حاضر السودان وماضيه فبات بذلك مكتبتنا العربية تعاني حتى اليوم نقصاً كبيراً في هذه الناحية على ما لها من أهمية وخطر ..

فإن استطاعت هذه الصفحات أن تثير واحداً من كتابنا الأجلاء لينفض تراب النسيان عن بطل آخر من أبطال السودان ، فإن مجهودي في تقديم هذا الكتاب يكون قد أثمر ثمرة المرجوة ، وتكون كل مشقة بذاتها في تجميع مواده من مختلف المصادر رخيصة إلى جوار ما حققه من أهداف وبذا يكون قد نجح الكتاب أخيراً في أداء رسالته نحو شمال الوادي وجنوبه .

والله ولي التوفيق ... ٩

قائمقام

سعد الدين الزبير

القاهرة في يوليو ١٩٥٣